من تراب الطريق (٤٤٨)

الإرادة الحقيقية والمجازية(*) عند الصوفية

التحقيق أن من تمحضت إرادته لعبودية الله بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك ليتوصل به إلى نيل حظها ـ هو الذى يسمى مريدًا .. فلم يتسم بذلك إلا لأنه يتصف بالإرادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب ، وقد سُمى مريدًا لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه .

وبهذا يتبين لك صحة كلام أبي يزيد البسطامى حيث قيل له : ما تريد ؟ فقال : أريد أن لا أريد .

قال فى التنوير : أراد أبو يزيد أن لا يريد .. لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه .. فهو في إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله جل وعلا .

فأنت مطالب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها .

والحديث القدسى : «**فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها**» فيه إشارة إلى أنه عند ذلك ليس للعبد إرادة ولا اختيار .. إلاّ ما اختاره له مولاه وأراده .

قال ابن عطاء الله السكندرى : «أنت إلى حلمه إذا أطعته ، أحوج منك إلى حلمه إن عصيته».

(٢)

قال الحارث المحاسبى : «إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعًا لقلوبهم ، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو القاضى

(*) المال ١٩/ ٥/ ٢٠١٠ .

وذلّ هيبةً لله ، فإن من ذلّ هيبةً لربه أطوع لله من العابد أو العالم الذى تكبّر وأنف » .

قال أبو طالب المكى ومن أفضل ما أعطانا الله نعمة الإيمان .. فلو قَلَّب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال .. فأى شىء كنا نصنع ، وعلى أى شىء كنا نعوّل ، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو ؟

فالعبد مضطر إلى الله أبدًا .. ولا يزايل العبد هـذا الاضطرار .. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها .

وهذا هو حكم الحقائق .. إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة .. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. فالعلم صفة الكشف ، أى علم كان فى أى وقت كان .. والإرادة صفتها التخصيص ، أى إرادة كانت فى أى وقت كان .. ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره .

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم ، سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرف (العبد) قهر ربوبيته وعظمة إلهيته .

(٣)

المطلوب من العبد شيئان : إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء عن غيره .. فإذا رزق الله العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمةً ظاهرةً وباطنةً .

(٤)

قال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد : لا يصفو لأحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنـده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى .

وقال أبو يزيد البسطامى : لو صفت لى تهليلة واحـدة ما باليت بعدها بشىء .

وإلى هذين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى .. وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ، فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة . هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها . قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى إنما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب لا تعريجًا على أوطان التقصير أو تجويزًا للإخلال بأدب من الآداب .

(٥)

الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ، ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته .. لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار .

قال ابن عطاء الله السكندرى : «أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار .. لأن الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك ، وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها! » .

وقال أيضًا : «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

(٦)

لابن عطاء الله السكندرى .

«الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته» .

«الأكوان من ذاتها العدم المحض .. حصل لها وصف الثبوت بإثبات الله لها وجعلها أكوانا ، فالثبوت لها أمر عرضى ، والحق اللازم هو أحدية الله عزّ وجلّ ، والأحدية مبالغة فى الوحدة لا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يكون أكمل ولا أشد منها .. فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان» .

*****